



الحكم والأمثال

تَجَدُّ مُتَوَاصِلٌ لِعُنْفَوَانِ اللُّغَةِ وَقَوَّتِهَا

الْمَثَلُ هُوَ الْقَوْلُ الْبَلِيغُ الْمُقْتَضِبُ الَّذِي يُضْرَبُ لِشَرْحِ أَمْرٍ أَوْ تَفْسِيرِ ظَاهِرَةٍ أَوْ تَأْكِيدِ مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي، وَتَرْجِعُ نَشَأَتُهُ إِلَى أَحْدَاثٍ قَدِيمَةٍ، فَأَكْثَرَ الْأَمْثَالِ يَعُودُ بِنَا فِي نَشَأَتِهِ وَظُهُورِهِ إِلَى الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ، يَوْمَ كَانَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي عُنْفَوَانِ شَبَابِهَا، وَكَادَتْ تَنْحَصِرُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ بَعِيدُونَ عَنِ الْأَعَاجِمِ، قَبْلَ أَنْ يُخَالِطُوهُمْ فَيَتَفَشَّى اللَّحْنُ.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْأَمْثَالَ لَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِ النَّثْرِ وَلَيْسَتْ مِنَ الشُّعْرِ، فَإِنَّ الْأَمْثَالَ أَشْبَهُ بِالشُّعْرِ الْمَشْتُورِ يُرْسِلُهُ الشَّاعِرُ قَبْلَ النَّاثِرِ، خَاصَّةً أَنْ أَكْثَرَ الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي دَوَّنَهَا لَنَا الْقَدَمَاءُ مِنْ مُؤَرِّخِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ تَرْجِعُ فِي وَضْعِهَا إِلَى هَوْلَاءِ الشُّعْرَاءِ الْجَاهِلِيِّينَ.

وَقَدْ كَانَ شُعْرَاءُ الصَّعَالِيكِ - وَهُمْ مِنَ الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ مِنْ شُعْرَاءِ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ وَبَعْضُهُمْ عَمَّرَ فَأَدْرَكَ الْإِسْلَامَ - أَعْظَمَ حَظًّا وَأَوْفَرَ نَصِيبًا مِنْ إِخْوَانِهِمْ فِي هَذَا الْبَابِ. وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى اسْتِعْدَادِهِمْ الْفِطْرِيِّ الْبَالِغِ وَتَفَاعُلِهِمْ الصَّرِيحِ بِالْبَيْئَةِ الْعَرَبِيَّةِ الصَّارِخَةِ الَّتِي أَبْدَعَتْ هَذَا اللَّوْنَ مِنَ الْأَدَبِ النَّثْرِيِّ، وَاشْتَهَرَ مِنْ هَوْلَاءِ جَمَاعَةٍ عُرِفُوا بِضُرْبِهِمْ فِي فَيَافِي الْجَزِيرَةِ



أَلْفَاةٌ كَثْرًا يَفْنَى

كُتِبَ الْأَدَبُ إِلَّا حِينَ تَعَقَّدَتِ الْحَيَاةُ وَاتَّسَعَتْ رُقْعَةُ الدَّوْلَةِ وَاحْتِجَّ إِلَى الْعَمَالِ فِي الْأَقَالِيمِ لِإِحْصَاءِ أُمُورِ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَتَنْظِيمِ سِيَاسَتِهَا الدَّاخِلِيَّةِ وَالخَارِجِيَّةِ.

أَمَّا الْأَمْثَالُ فَإِنَّهَا لَمْ تَتَّحَدَّدْ بِهَذَا الزَّمَنِ أَوْ تَحْتَنِقَ فِي هَذِهِ الدَّائِرَةِ الضَّيِّقَةِ أَوْ تَتَوَقَّفَ عِنْدَ هَذِهِ الْأَسْبَابِ لِأَنَّهَا مِنَ الْحَيَاةِ الْيَوْمِيَّةِ فِي الْأُسْرَةِ وَالْمُجْتَمَعِ، فَقَدْ كَانَتْ وَلَا تَزَالُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَعِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ الرَّجُلِ السَّادِجِ وَالْعَامِّيِّ وَالْجَاهِلِ وَمُحَدِّدِ الثَّقَافَةِ، كَمَا هِيَ عِنْدَ الْكَاتِبِ الْكَبِيرِ وَالْأَدِيبِ الْمُبْتَكِرِ، بَلْ رُبَّمَا كَانَتْ عِنْدَ السَّادِجِ وَالْجَاهِلِ أَوْفَرَ اسْتِعْمَالًا مِنْ غَيْرِهِ.